٥١

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدار للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

انبثاق المرجعية العلمية وتأصيل الاستنباط

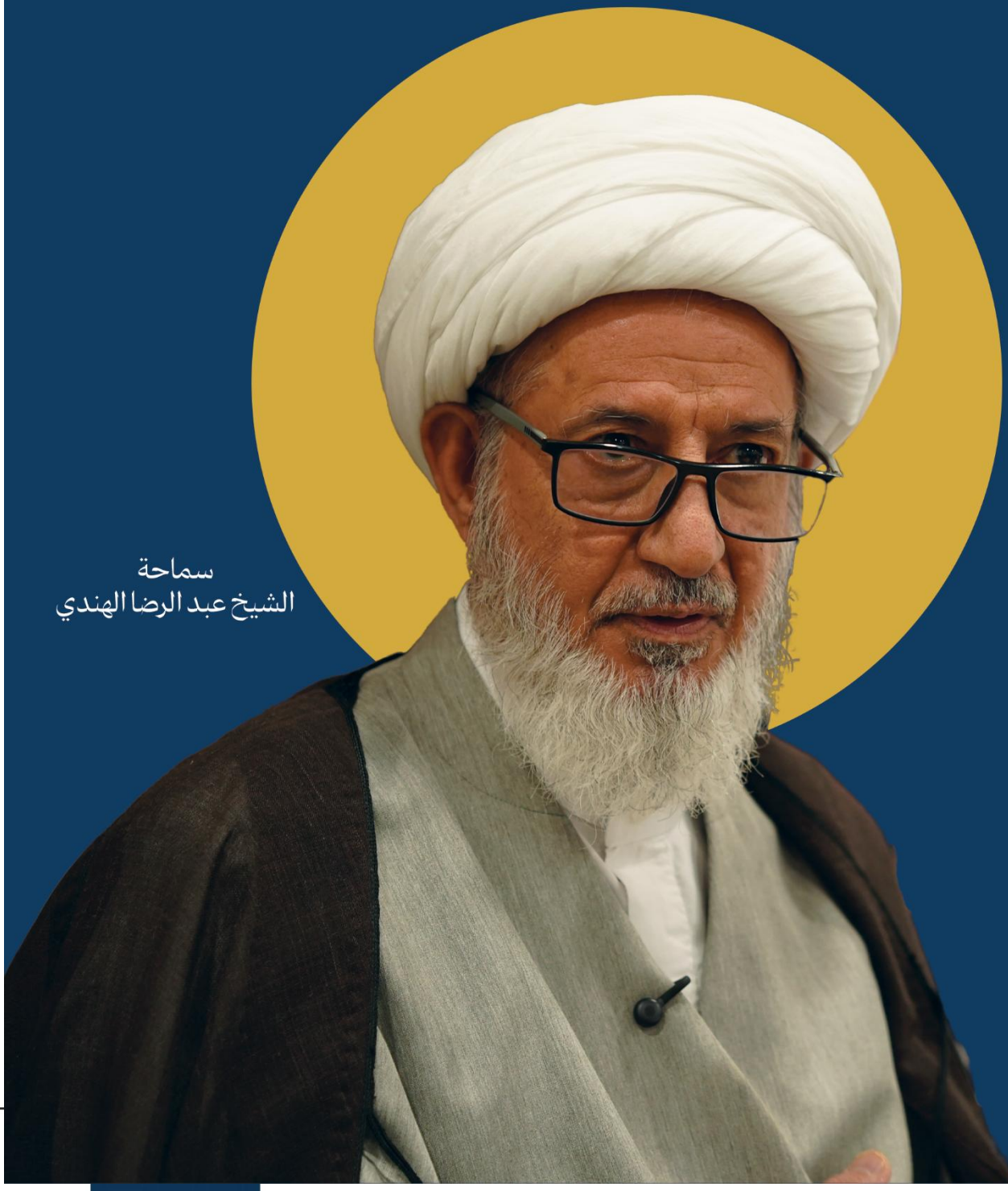

سماحة
الشيخ عبد الرضا الهندي

انبثاق المرجعية العلمية وتأصيل الاستنباط

الشيخ عبد الرضا الهندي

- المرجعية المعرفية: من الوحي إلى إمامة العترة الطاهرة
- خريطة المدارس الفقهية وبواعث الانحياز إلى الرأي
- موقف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ومحاكمة القياس
- سعة علوم أهل البيت (عليهم السلام) وشموليتها
- مدرسة الإمامين الصادقين: رعاية النخبة وتأهيل الفقهاء
- قاعدة التفريع ومسؤولية الاستنباط المنهجي
- العناية الإلهية بإعداد النخبة وتعهد الأجيال
- المنهج التعليمي للأئمة: تأصيل آليات الاستنباط القرآني

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين، وأزكى صلوات الله وتسليماته على سيّدنا ونبيّنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

إن الجوانب المعرفية والشخصية التي تحفل بها سيرة الإمام الصادق (عليه السلام) واسعة الأرجاء وعميقة الأغوار، وتسليط الضوء على المحور الفقهي والاستنباطي تحديداً يكشف عن منهجية الإمام في إعداد وتخريج جيل من التلاميذ والفقهاء الذين اضطلعوا بدور الاستنباط والاجتهاد في زمانه وزمان والده الإمام محمد الباقر (عليه السلام)، ومدرسة الإمام الصادق لم تكن وليدة ظروفها المنفصلة، بل هي امتداد عضوي ومعرفي متصل لمدرسة الإمام الباقر، التي تمثل بدورها امتداداً لمدرسة الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام)، وصولاً إلى مدرسة السبطين الحسن والحسين (عليهما السلام)، ومروراً بالمصدر التأسيسي المتمثل في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)؛ إذ تستند الرؤية الإمامية إلى أن المرجعية العلمية والقيادة المعرفية للأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد عُهد بها أصالة وتعييناً إلى أمير المؤمنين وأبنائه الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

المرجعية المعرفية: من الوحي إلى إمامة العترة الطاهرة

لقد استقر في عصر الرسالة أن تلقي الشريعة في شتى مجالاتها -سواء في الفقه، أو العقائد، أو الأخلاق، أو سائر المعارف الدينية- كان محصوراً بالاتصال المباشر برسول الله (صلى الله عليه وآله)، فالنبي هو المصدر التنفيذي للتشريع بحكم نزول القرآن الكريم عليه؛ إذ آتاه الله القرآن وعلّمه تأويله، فكان (صلى الله عليه وآله) المبيّن لأحكامه، والمفسر لمجملاته، والمعلم لمضامينه، ولم يكن ثمة مدعاة للنزاع أو الاختلاف المنهجي في حضرته، وما كان يعتري بعض النفوس من تساؤلات أو مراجعات في وقائع معينة سرعان ما يُحسم بالرجوع إليه، انطلاقاً من الأصل العقدي القطعي بأن النبي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4].

أما بعد رحيل النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، فإن الترتيب الإلهي والمسار الطبيعي الذي بينه المصطفى وجعله للأمة، تمثل في إرجاع المرجعية العلمية والقيادية إلى أهل بيته الطاهرين، تصدراً بأمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ويستند هذا الاستحقاق إلى حزمة واسعة من النصوص المتواترة والأدلة القاطعة، ومنها:

قول النبي (صلى الله عليه وآله): ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))[1].

و"حديث الثقلين" المتواتر الذي لا يعتريه أدنى ريب لدى الإمامية ومختلف فرق المسلمين؛ حيث ورد بطرق متعددة، منها ما أخرجه الطبراني وغيره بألفاظ متقاربة: ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي))، وجاء في تتمة بعض طرقه المعتبرة: ((فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا، ولا تُعلّموهم فإنهم أعلم منكم))[2].

[1] - تفسير الماتريدي، أبو منصور الماتريدي: 2/ 63.
[2] - مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 18/ 114.

إن الدلالة الجوهرية في هذا التوجيه النبوي تتلخص في حصر الصدارة العلمية في أهل البيت؛ استناداً إلى علو رتبتهم الإلهية ومكانتهم، وفحوى ذلك: "أهل البيت أدرى بما في البيت"، فهم حملة العلم النبوي وورثة أسرار الشريعة.

نشوء إشكالية الفراغ التشريعي وظاهرة "الاجتهاد بالرأي"

شهدت الساحة الفكرية خارج مدرسة أهل البيت بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله) ظهور نوازل ومسائل فقهية مستجدة فرضها اتساع حركة الحياة والفتوحات، ولم يكن بحوزة المتصدين للفتوى نصوص صريحة مأثورة عن رسول الله تغطي تلك المستحدثات، وأمام هذا النقص، أعلنوا الأخذ بالاجتهاد القائم على الرأي والاستحسان الفردي، وهو النهج الذي تبلور لاحقاً وتطور ليصبح مدرسة "القياس".

وقد أفرز هذا التحول معضلات تشريعية واسعة في الموارد الابتلائية، ومن أبرز الشواهد على ذلك: مسألة حجب وميراث الجد مع وجود الإخوة إذا لم يترك المتوفى والدين أو أولاداً؛ فهذه المسألة لم يرد فيها نص قرآني مفصل، وروت مصادر العامة أن الخليفة الثاني أفتى فيها بنحو مئة فتوى متعارضة، وثبت في مدوناتهم ما يقارب عشرين فتوى مختلفة، وعندما سئل عن وجه تضارب فتاواه وتغيرها في نفس المسألة، قال: "تلك على ما قضينا يومئذ، وهذه على ما نقضي اليوم".

وقد علّق الإمام محمد الباقر (عليه السلام) على هذا التخبط كاشفاً جذر المشكلة المنهجية، حيث قال: ((ما أعلم أحداً من الناس قال فيه -أي في توريث الجد- إلا بالرأي، وما أعلم أحداً قال فيه إلا بالرأي إلا علي بن أبي طالب؛ فإنه قال فيه بقول رسول الله)).

ويُروى عن سعيد بن جبير عن رجل من بني مراد أنه سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) يحذر من خطورة القضاء بغير أثر ولا نص، قائلاً: ((من سرّه أن يتقحم جراثيم جهنم، فليقضِ بين الجد والإخوة))[3].

و"الجرثومة" في أصل اللسان العربي تعني أصل الشيء ومستقره، ولا ترتبط بالمعنى الاصطلاحي المعاصر للميكروبات؛ والمراد من الحديث: من أراد أن يلقي بنفسه في قعر جهنم وأصلها فليتجرأ على الفتوى في هذه المسألة بمجرد الرأي والظن.

خريطة المدارس الفقهية وبواعث الانحياز إلى الرأي

أدى غياب النصوص إلى انقسام الحواضر الإسلامية إلى مراكز واتجاهات متعددة؛ فكانت مدرسة المدينة، ومدرسة الكوفة، فضلاً عن حواضر البصرة والشام، وتمايزت هذه المدارس في تعاطيها مع النقص الحديثي:

مدرسة المدينة المنورة: تمثلت لاحقاً بمالك بن أنس صاحب كتاب "الموطأ"، الذي حظي بحظوة ورسمية وتبنٍّ من الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور، ولم تكن هذه المدرسة بمنأى عن الرأي؛ حيث يُنقل عن الحافظ يحيى بن معين قوله: "إن مالكاً لم يكن صاحب

[3] - السنن الكبرى، البيهقي: 6/ 402.

حديث، بل كان صاحب رأي"[4]، كما ذكر الليث بن سعد: "أحصيتُ على مالك سبعين مسألة وكلها مخالفة لسنة رسول الله، وقد اعترف مالك بذلك"[5].

مدرسة الكوفة: تمثلت في أبي حنيفة وتلاميذه وشيوخه، كربيعة الرأي وحماد بن أبي سليمان؛ وقد عُرفت بتشددها في قبول الحديث النبوي بسبب تداعيات "منع تدوين الحديث"[6] الذي فرضته السلطة بعد رحيل النبي واستمر قرابة قرن من الزمان، هذا الحظر الطويل أحدث فجوة تاريخية وأدخل الريبة والتهمة في المرويات، مما أوجب فحصاً وتمحيصاً عسيراً، فأدى في المحصلة إلى شح الدليل النقلي المتاح لدى تلك المدرسة؛ الأمر الذي ألجأها إلى تعويض ذلك الفراغ بالاستنباط المبني على القياس والرأي والافتراض.

موقف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ومحاكمة القياس

وقف أمير المؤمنين وأبناؤه المعصومون (عليهم السلام) بحزم أمام ظاهرة إدخال الرأي والاستحسان الشخصي في تشريع الأحكام الإلهية، وبيّنوا زيف المنهج القياسي القائم على القياسات الظنية.

فقد قرر أمير المؤمنين (عليه السلام) التباين الصارخ بين العقل والشريعة التوقيفية بقوله: ((لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره))[7]، فالعقل السطحي يرى أن أسفل الخف هو المباشر للأرض والتراب فهو الأولى بالتطهير، إلا أن السنة النبوية جاءت بمسح الظاهر، مما يثبت توقيفية العبادات.

وقال (عليه السلام) في إرساء قاعدة منع الاجتهاد التخميني: ((من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس، ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس))[8].

وعزز الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) هذا التأصيل بقوله: ((إن السنة لا تُقاس؛ ألا ترى أن المرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ إن السنة إذا قِيست مُحق الدين))[9]، فالصلاة أعظم شأناً وركناً من الصيام، ومع ذلك فإن الحكم التعبدي أسقط عنها قضاء الصلاة وأوجب قضاء الصيام، فلو اعتُمد القياس لكان الأولى إيجاب قضاء الصلاة.

وقد تجلت هذه المحاكمات الفكرية في المناظرات العلمية، لا سيما في مواسم الحج؛ حيث كان مِنى ومكة المكرمة والمسجد الحرام، فضلاً عن المدينة المنورة، ساحات مفتوحة للحوار بين الأئمة من جهة وفقهاء المذاهب وجمهور المسلمين من جهة أخرى، وكان المبيت في منى يوفر مساحة زمنية رحبة للمباحثات الفقهية.

وفي هذا السياق، دخل أبو حنيفة وابن شبرمة على الإمام الصادق (عليه السلام)، فبادره الإمام ناصحاً ومناظراً: ((اتقِ الله ولا تقس في الدين برأيك؛ فإن أول من قاس إبليس))، ثم طالبه بحل التناقضات وفق منهجه:

---

[4] - أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية: ٢٩٩.

[5] - ظ: التعليق الممجد على موطأ محمد، اللكنوي أبو الحسنات: 1/ 41.

[6] - "روي عن سعد بن ابراهيم، عن أبيه: أن عمر، قال لابن مسعود، وأبي ذر، وأبي الدرداء: ما هذا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه واله) وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أصيب"، (سير أعلام النبلاء، الذهبي: 2/ 345).

[7] - المبسوط، السرخسي: 1/ 101.

[8] - الكافي، الكليني: 1/ 58.

[9] - - الكافي، الكليني: 1/ 57.

سأله الإمام: ((أيهما أعظم: قتل النفس أم الزنا؟))، فأجاب: قتل النفس، فقال الإمام: ((فإن الله تعالى قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة شهداء)).
ثم سأله: ((أيهما أعظم: الصلاة أم الصوم؟))، فأجاب: الصلاة، فقال الإمام: ((فما بال المرأة تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟ فكيف يقوم لك القياس؟!))[10].

سعة علوم أهل البيت (عليهم السلام) وشموليتها

في مقابل الفراغ المعرفي والاضطرار للرأي لدى سائر المدارس، كان أهل البيت (عليهم السلام) يصدرون عن فيض معرفي رباني لا انقطاع له، ومصادر علمية غنية متعددة تجعلهم في غنى تام عن الظن والقياس.
ويتضح هذا العمق فيما رواه سدير الصيرفي حين دخل على الإمام الصادق (عليه السلام)، فافتتح الإمام الحديث مستشهداً بآيات الكتاب المبين:
سأله الإمام: ((يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟))، قال: "بلى"، قال: ((فهل وجدتَ فيما قرأت من كتاب الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]؟))، قال: جعلت فداك، قد قرأته، فقال الإمام مبيناً منزلة علم آصف بن برخيا: ((فهل عرفت الرجل، وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟))، فأجاب سدير بالنفي ملتمساً البيان، فقال الإمام الصادق (عليه السلام): ((قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟!))، ثم انتقل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى إيضاح موضع المقارنة الكبرى؛ تالياً قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 43]، وسأل سديراً مستفهماً: ((أفمن عنده علم الكتاب كله أفهم، أم من عنده علم الكتاب بعضه؟))، فأجاب سدير: بل من عنده علم الكتاب كله، فأومأ الإمام (عليه السلام) بيده الشريفة إلى صدره وقال: ((علم الكتاب واللهِ كلّه عندنا.. علم الكتاب واللهِ كلّه عندنا))[11].

مدرسة الإمامين الصادقين: رعاية النخبة وتأهيل الفقهاء

إن اقتران اسم هذا المجمع العلمي باسم الفقيه الجليل "محمد بن مسلم" ليس مجرد مصادفة، بل هو توفيق رباني يستحضر سيرة هذا العلم البارز من أصحاب الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام).
لقد جمع محمد بن مسلم بين المكانة الاجتماعية الرفيعة، والوجاهة، والثروة بوصفه تاجراً مرموقاً، فضلاً عن مقامه العلمي الشامخ، ومما ينقله أستاذنا وسماحة سيدنا الجليل (دام ظله) عن تربية الأئمة لخواص أصحابهم: أن الإمام الباقر (عليه السلام) أراد كسر حاجز المهابة الزائدة والوجاهة التي قد تمنع الناس والمؤمنين من سؤاله والاقتراب منه للتفقه؛ فقال له الإمام كلمة واحدة نافذة رسمت منهجه التربوي: ((تواضع))، فوعى محمد بن مسلم حقيقة هذه التربية، وعاد إلى الكوفة ليمارس دوره المعرفي والاجتماعي باحتكاك مباشر مع الناس وملاطفة وتواضع.

[10] - علل الشرايع، الصدوق: 1/ 86.
[11] - بصائر الدرجات، الصفار: 58.

ولقد لازم هذا الفقيه المدينة المنورة أربع سنوات متصلة ينهل من علوم الإمام الباقر (عليه السلام)، حتى غدا من كبار فقهاء الطائفة الذين نقلوا هذا العلم المتصل بالنبوة.

وقد صنّف سماحة السيد الأستاذ (أطال الله في عمره الشريف) في بحوثه ودروسه المطبوعة طبقات الرواة والناقلين للحديث عن الصادقين (عليهما السلام) إلى مستويين متمايزين:

المستوى الأول: يمثل مستوى النخبة، وهو "مستوى تعليم الفقه العالي"، الذي ضم طبقة المبرّزين من الفقهاء الذين نالوا تأهيلاً استدلالياً دقيقاً، فكانوا على درجة سامية من الدراية والفقاهة واستنباط الأحكام.

مستويات الرواة: بين الاستفتاء الفردي والتأهيل الأصولي

إن المتأمل في طبيعة الرواة وحملة الأحاديث عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) يجد أنهم لم يكونوا على نسقٍ واحد ولا في رتبة متماثلة؛ بل تمايزوا إلى طبقتين رئيستين تعكسان التدرج المعرفي في التلقي والبيان:

المستوى الأول (مستوى الاستفتاء والمسائل الابتلائية الخاصة): ويمثل عامة الناس وجمهور المكلفين الذين كانت تعرض لهم وقائع شخصية وحاجات ابتلائية يومية، فيقصدون الإمام (عليه السلام) لالتماس الحكم الشرعي المباشر لواقعة بعينها، ومن شواهد ذلك: أن يسأل السائل عن حكم إفطاره المتعمد في شهر رمضان، فيجيبه الإمام ببيان كفارته المحددة كعتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً، ومثل هذا الصنف من الرواة والسائلين -رجلاً كان أو امرأة- لم يكن مُعدّاً لحمل أعباء الاستنباط أو رد الفروع إلى الأصول، بل كان حظّه استلام الحكم الجزئي لواقعته المحددة والعمل بمقتضاه.

المستوى الثاني (مستوى التعليم العالي والتأهيل الأصولي): ويمثل النخبة المنتجبة والصفوة العلمية من الفقهاء؛ كزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وأبي بصير، وأضرابهم، وهؤلاء لم تكن الروايات الملقاة إليهم مجرد فتاوى في وقائع عينية منقطعة، بل كانت تشتمل على كبريات القواعد، والأصول الاستدلالية العامة، والمناهج التفسيرية، ليتولوا بأنفسهم تفريع المسائل الجزئية، والاستظهار المنهجي من الكتاب والسنة، والدفاع العلمي الرصين عن فقه أهل البيت (عليهم السلام) في قبال التيارات والمدارس الفقهية المعاصرة لهم.

قاعدة التفريع ومسؤولية الاستنباط المنهجي

لقد تكفل هذا المستوى العالي من الرواة بحمل منهجية الاجتهاد الشرعي المنضبط، تجسيداً للقاعدة التأصيلية الكبرى التي قررها أئمة العترة الطاهرة؛ حيث روي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال: ((إنما علينا أن نلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تفرّعوا))[12].

وقد تكرر هذا التوجيه المنهجي الصريح على لسان الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) لخواص أصحابه من الفقهاء، كأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي وهشام بن سالم؛ إذ قال (عليه السلام): ((علينا إلقاء الأصول وعليكم التفريع))، وهذا يفصح بجلاء

[12] - عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي: 4/ 64.

عن أن الخطاب الموجه لهذه النخبة كان يتجاوز التلقين الحرفي للمسائل المفردة، إلى غرس القواعد الكلية وتمرين العقول الفقهية على توليد الفروع منها ومواجهة المستجدات بحصانة تشريعية تامة.

شخصية محمد بن مسلم الثقفي ورسوخ مدرسته الفقهية

تتجلى ثمرات هذا التأهيل العلمي الرفيع في شخصية الفقيه الكبير محمد بن مسلم الثقفي، الذي اجتمعت فيه خصال العلم الشامخ والوجاهة الاجتماعية والمكانة الرفيعة؛ فقد أقام في المدينة المنورة أربع سنين متواصلة، يلازم الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) ويغترف من معارفهما[13].

وقد نال هذا الرجل منزلة اجتهادية شهد له بها أقطاب الرواة وأهل النظر؛ فقد روى أبو أحمد عن عبد الرحمن بن الحجاج وحماد بن عثمان أنهما قالا: "ما كان أحد من الشيعة أفقه من محمد بن مسلم"[14].

وتعزيزاً لمكانته ومرجعيته في الإفتاء، يروي عبد الله بن أبي يعفور أنه قال للإمام الصادق (عليه السلام): إنه ليس كل ساعة ألقاك فيها؛ إذ تحول المسافة بين الكوفة والمدينة دون دوام اللقاء، وتتعذر المراجعة المباشرة في كل نازلة، في حين يقصدني الرجل من أصحابنا فيسألني عن المسألة وليس عندي كل ما يسألون عنه، فماذا أصنع؟ فأجابه الإمام الصادق (عليه السلام) إرجاعاً وتوثيقاً: ((فما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي؟! فإنه قد سمع من أبي، وكان عنده وجيهاً))[15].

صحيفة الفرائض: أصالة النقل وبطلان الرأي

من أعظم الشواهد على اعتماد مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) على النص المكتوب الموروث عن الوحي، ما يرتبط بكتاب "الفرائض"؛ وهو صحيفة أملاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخُطت بيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وقد ورد عن زرارة بن أعين أنه سأل الإمام أبا جعفر الباقر (عليه السلام) عن معضلة "ميراث الجد والإخوة"، فقال له الإمام الباقر: ((ما أجد أحداً قال فيه إلا برأيه إلا أمير المؤمنين))، فقال زرارة: أصلحك الله، فماذا قال فيه أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام: ((إذا كان غداً فالقني حتى أقرئكه في كتاب)).

ورغم أن زرارة التمس السماع الشفوي قائلاً: "أصلحك الله، حدّثني؛ فإن حديثك أحب إليّ من أن تقرئني في كتاب"، إلا أن الإمام الباقر أعاد عليه مؤكداً التوثيق المكتوب: ((فاسمع ما أقول لك: إذا كان غداً فالقني حتى أقرئكه في كتاب)).

ويروي زرارة تفاصيل هذا اللقاء التاريخي قائلاً: "فأتيته من الغد بعد الظهر، وكانت ساعتي التي أخلو به فيها بين الظهر والعصر -وهو وقت تقلّ فيه الرقابة وتنتفي فيه التقية- وكنت أكره أن أسأله إلا خالياً خشية أن يفتيني من أجل من يحضره بالتقية، فلما دخلتُ عليه، أقبل على ابنه جعفر (عليه السلام) فقال له: ((أقرئ زرارة صحيفة الفرائض))، ثم قام لينام، فبقيتُ أنا وجعفر في البيت، فقام فأخرج إليّ صحيفة كأنها فخذ البعير -وهي استعارة تشير إلى

[13] - ظ: رجال النجاشي، النجاشي: 323.
[14] - الاختصاص، المفيد: 203.
[15] - اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي: 1/ 383.

ضخامة المخطوطات القديمة وسماكة أديمها قبل ظهور الورق الحديث- فقال جعفر (عليه السلام): ((لستُ أقرئكها حتى تجعل لي عليك عهد الله ألا تُحدث بما تقرأ فيها أحداً أبداً حتى آذن لك))، ولم يقل حتى يأذن لك أبي؛ وفي هذا دلالة وإشارة بيّنة إلى إمامة جعفر بن محمد الصادق اللاحقة، وتربية الأصحاب على الرجوع إليه والأخذ بإذنه وأمره، فقلتُ: أصلحك الله، لِمَ تضيّق عليّ ولم يأمرك أبوك بذلك؟ فقال: ((ما أنت بناظر فيها إلا على ما قلت لك))، فأعطيته العهد؛ وكنت رجلاً خبيراً بالفرائض والوصايا، بصيراً بحساب السهام، لا يكاد يلقى عليّ شيء أجهله، فنظرتُ في الصحيفة فإذا فيها خلاف ما عليه الناس وما بأيديهم من الأحكام؛ فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم أدرجتها ودفعتها إليه، فلما أصبحتُ لقيتُ أبا جعفر الباقر (عليه السلام) فقال لي: ((أقرأت صحيفة الفرائض؟))، فقلت: نعم، قال: ((فكيف رأيت ما قرأت؟))، فقلت: باطل ليس بشيء؛ هو خلاف ما الناس عليه! فقال لي: ((فإن الذي رأيت والله يا زرارة هو الحق! الذي رأيت إملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخط عليّ بيده))"[16].

العناية الإلهية بإعداد النخبة وتعهد الأجيال

لقد حفظ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) -بدءاً من أمير المؤمنين والحسن والحسين، مروراً بالإمام السجاد، ووصولاً إلى الباقر والصادق (عليهم السلام)- صفوة علمية منتجبة حملت لواء الفقه الأصيل؛ حيث دُوّنت سيرهم ومروياتهم في مصنفات موسوعية تتناول طبقات الرواة عن كل إمام.

وحين حضرت الوفاةُ الإمامَ أبا جعفر الباقر (عليه السلام)، أوصى ابنه الصادق برعاية هذه الصفوة العلمية قائلاً: ((بنيّ يا جعفر، أوصيك بأصحابي خيراً))، فأجابه الإمام الصادق (عليه السلام) عهداً وتوثيقاً: ((جُعلت فداك، والله لأدعنّهم والرجل منهم في المِصر لا يسأل أحداً))[17].

وقد وفى الإمام الصادق بهذا العهد؛ فرعاهم معرفياً واقتصادياً حتى بلغ الفقه الشيعي ذروة ازدهاره، وتجلت بركة هذا الغراس فيما نقله الحسن بن علي الوشاء لاحقاً في عهد الإمامين الكاظم والرضا (عليهما السلام)؛ إذ قال: "أدركتُ في هذا المسجد -أي مسجد الكوفة- تسعمئة شيخ، كلٌّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد".

المكانة العلمية لأصحاب الأئمة وسعة اطلاعهم

بلغ أصحاب الأئمة من التضلع الفقهي مرتبة جعلت الحواضر الإسلامية بأسرها تشهد بتقدمهم؛ ومن هؤلاء:

[16] - الكافي، الكليني: 7/ 94.
[17] - الكافي، الكليني: 1/ 306.

أبان بن تغلب: الذي جمع بين علوم الفقه وأصوله والقراءات واللغة؛ وكان إذا قدم المدينة المنورة تقوّضت حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف وانثالت عليه طلباً للعلم، ولذا قال له الإمام الصادق (عليه السلام): ((جالس أهل المدينة؛ فإني أحب أن يُرى في شيعتنا مثلك))[18].

الأمناء الأربعة: وهم الذين وصفهم الإمام الصادق (عليه السلام) فيما رواه جميل بن دراج بقوله: ((بشّر المخبتين بالجنة: بُريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير ليث بن البختري المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة؛ أربعة نجباء، أمناء الله على حلاله وحرامه، ولولا هؤلاء لانقطعت آثار النبوة واندرست))، وفي نص آخر: ((لولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هدى))[19].

عبيد الله بن علي الحلبي: صاحب الكتاب الفقهي المعتمد الذي عُرض على الإمام الصادق (عليه السلام) فاستحسنه وأثنى عليه قائلاً: ((ما لهؤلاء مثله في الفقه))[20].

وعلاوة على رسوخهم في فقه العترة، تميز هؤلاء الفقهاء بإحاطة موسوعية دقيقة بآراء فقهاء العامة وقضاة الأمصار ومدارس الرأي؛ فكان أبان بن تغلب يجلس في مسجد الكوفة مستفتىً، وحين استشكل في مداراة السائلين، أمره الإمام الصادق بأن يفتي كل سائل بحسب مذهبه قائلاً: ((انظر ما علمتَ أنه من قولهم فأخبرهم بذلك))[21]، كما كان محمد بن مسلم يناقش الإمام الصادق (عليه السلام) في منشأ الاختلاف الحديثي وقضايا القضاة في الكوفة ومسائل حجب الجد لابن الأخ، مما يؤكد سعة مداركهم واستيعابهم للواقع الفقهي المحيط.

المنهج التعليمي للأئمة: تأصيل آليات الاستنباط القرآني

لم يكن الأئمة (عليهم السلام) يلقنون الأحكام كمعطيات مجردة، بل كانوا يدربون تلامذتهم على مناهج الاستظهار واستنطاق النص القرآني:

مسألة مسح الرأس والرجلين: حين سأل زرارة الإمام الباقر (عليه السلام): من أين علمتَ وقلتَ إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين، مع أن الوجه يُغسل بتمامه؟ تبسم الإمام وأرجعه إلى أسرار اللسان القرآني مبيناً: ((قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونزل به الكتاب من الله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُم إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، فعرفنا حين قال: "برؤوسكم" أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه: فقال: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ فعرفنا حين وصلها بالرأس أن المسح على بعضها ثم فسر ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) للناس فضيعوه))[22].

مسألة قصر الصلاة في السفر: استشكل زرارة ومحمد بن مسلم في إيجاب القصر؛ لأن ظاهر الآية: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: 101] ينفي الحرج ولا يدل على الوجوب العيني، فقالا: "إنما قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل: افعلوا، فكيف

---

[18] - اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي: 2/ 622.
[19] - الاختصاص، المفيد: 66.
[20] - خلاصة الأقوال، العلامة الحلي: 203.
[21] - اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي: 2/ 622.
[22] - الكافي، الكليني: 3/ 30.

وجب القصر كوجوب التمام في الحضر؟"، فأجابهما الإمام الباقر (عليه السلام) بدرس استنباطي رصين ونظير قرآني محكم: ((أوليس قد قال الله عز وجل في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158]؟ ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض لأن الله ذكره في كتابه وصنعه نبيه؟ فكذلك التقصير في السفر؛ شيء صنعه النبي (صلى الله عليه وآله) وذكره الله تعالى في كتابه))[23].

وبذلك يتضح أن تأسيس هذه الصروح الحوزوية، وعقد هذه الحلقات العلمية المباركة، إنما هو ارتشاف من ذلك النمير العذب والشعاع الطاهر الذي أرسى أركانه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعترته المعصومون، ونهض بأعباء تشييده وتوريثه الإمامان الباقر والصادق (عليهما السلام).

[23] - من لا يحضره الفقيه، الصدوق: 1/ 434.